بنية الخطاب القصصي الإبداعي عند محمد بشير بويجرة
قصة : الرصاصة والذاكرة نموذجا

الأستاذ: جمال حرشاوي

جامعة وهران ـ الجزائر

يتناول هذا البحث مدارسة مستويات الخطاب عند القاص: محمد بشير بويجرة، وذلك من خلال دراسة الشخصيات، الحكي، السرد والسردانية في قصته القصيرة: (الرصاصة والذاكرة)

Résumé : Le sujet traite les aspects du discours chez le narrateur : Mohamed Bachir Bouyadjra. Il étudie les personnages, le récit, la narration dans son œuvre : **la balle et la mémoire**

يطرح موضوع البحث إشكالات عديدة تتصل بعدة مفاهيم متداخلة يطرحها الإنشاء النقدي العربي الحديث والمعاصر. من هذه المفاهيم نجد الخطاب والنص والمتن. وهذا الأمر يدعونا إلى التمييز بين أنواع الخطاب التي يطرحها الإنشاء النقدي منها . على سبيل المثال لا الحصر. خصائص الخطاب المحايثة، وكذلك المستويات المؤسسة له، واستجابة المتلقي أثناء عملية القراءة الواعية للنصوص، وكذلك التأويلات المختلفة لهذه البنيات النصية. هذه إشكالات كثيرة يطرحها المهتمون بنظرية الأدب وقضايا النص المختلفة.

إن محاولة الاقتراب من رواد النظريات، وكذلك المناهج التي حاولت إيجاد مفهوم أو حدّ واضح للخطاب أو مدارسته وتحليله قصد الاستفادة من نتائجها، هو أمر يؤدي بنا . حتما . إلى ضرب من الإعنات، لأن هدفنا الأساس في هذا البحث هو مدارسة الخطاب القصصي الإبداعي عند القاص : محمد بشير بويجرة. من خلال قصة : **الرصاصة والذاكرة.** من هنا سنسعى جاهدين إلى محاولة حل الإشكال المعرفي للخطاب القصصي عند القاص محمد بشير بويجرة، لدا سنلقي بعض الأضواء على بعض خصائص النص القصصي، وكذلك الخطاب الإبداعي من المستويات المكونة له.

فإذا ما تصفحنا بعض المعاجم المختصة نجد أن هذه المعاجم تخلط بين مصطلحي الخطاب، والنص، فهي تطرح مفهوم النص والقول من جهة، ومفهوم الخطاب والتلفظ من جهة أخرى، وقد تقابل بينهما أحيانا، ويعود هذا الاضطراب المنهجي في ضبط حدود مصطلحي النص والخطاب إلى الفوضى العارمة التي انتابت المناهج نتيجة الترجمة السيئة للمصطلحين : النص والخطاب، وكذلك إلى تدبدب الخلفيات النظرية المختلفة. يرى محمد مفتاح[1] أن الخطاب والنص نشأ في أحضان لسانيات الجملة بحيث لم تراع في الجملة سوى صحة التركيب وأنساق المعنى بصرف النظر عن انسجامه مع سياقه.

ويضيف محمد مفتاح أن أبعاد السياق تمخضت عن منهج قويم، لأن نظرية نحو الجملة، وكذلك سيميائيات كريماس هو اختيار بعض المستويات التي يقتضيها الهدف المتوخى. إذن هي صياغة نحو خاص باللغة، ونحو خاص بالسرد.

ثم إن ابن منظور طرح مفهوما للنص يعني الإظهار والتراكم والتعيين ومنتهى الشيء وغيرها من المعاني التي جاءت في لسان العرب، وأنه يتألف من جمل وفقر وغيرها.

أما الخطاب فهو حديث يقوم بين طرفين (مخاطب ومخاطب)، فهذا معنى لغوي للنص والخطاب، أما من حيث الاصطلاح فإن النص هو ما يدعو إلى التأويل حسب الشافعي، كما أن النص هو ما يكون مقطوعا به، وغير مقطوع به. فإذا كان النص مقطوعا به فإنه لا اجتهاد مع وجوده، كما أن النص عند الأصوليين:«مثل الخطاب يقصد به الأمر والنهي، أو الإخبار»[2] وهذا معناه الخطاب هو نظام النص، كما أن اللغة هي نظام الكلام، لأن الخطاب أشمل من النص.

وإذا عدنا إلى موضوعنا نجد أن موضوع هدا البحث يندرج ضمن مشروع قراءة الأدب الجزائري الحديث مند بداياته مواكبا للواقع، معبرا عنه في معظم أجناسه المختلفة كالشعر والقصة والرواية والمسرح على مر العهود التي مرت بها الجزائر خلال القرن العشرين إلى يوم الناس هذا. فقد ساير الأدب الجزائري الحركة الوطنية التي شقها العلماء المسلمون الجزائريون، وتناهى مع ثورة التحرير المظفرة، فوصفها وكان اللسان الناطق بها أدبيا، ثم خفت في سنوات الاستقلال الأولى، ليعود بقوة في سنوات الثمانينات وكذلك التسعينيات، فأنتج كما هائلا من النصوص، والمجاميع القصصية، والروايات والمقاربات النقدية وسواها...

ومن بين المبدعين الجزائريين الذين واكبوا هده الحركة الأدبية الواسعة، محمد بشير بويجرة الذي صور بقلمه واقع عهود الثورة التحريرية الجزائرية المظفرة، كما صور عهود الاستقلال في الستينيات والسبعينيات والثمانينات، وكذلك عهود التسعينيات.

وذلك بأدب رفيع يكسوه شيء من الإشراف والواقعية في التصوير الصادق، فكانت القصة عنده متماشية مع الواقع الجزائري. فسايرت قصصه في بداياتها مسيرة«المسيرة الوطنية الكبرى، فبعد أن عبرت في المرحلة الأولى عن الثورة وآثارها في جماهير الشعب، عادت في المرحلة الثانية لتعبر عن الحياة الاجتماعية والتطلعات السياسية والحضارية لهذه الجماهير[3](....)».

فكانت قصص محمد بشير بويجرة في مرحلة السبعينيات رصدا حقيقيا للتحولات التي عاشتها الجزائر سياسيا وثقافيا واقتصاديا، وكذلك رصدا للآثار الاجتماعية لهذا التحول.

وعلى الرغم من قلة فرص النشر خلال مرحلة السبعينيات، فقد استطاع القاص محمد بشير بويجرة التجاوب مع الواقع المعيش، ونشر قصصا : «تعد وسائلها أكثر قدرة على الوصول إلى المتلقي**4**».

ينضاف إلى ذلك الجو العام الذي عرف تحول الواقعية الاشتراكية، أو الواقعية الاجتماعية التي سادت في المرحلة السابقة إلى واقعية جديدة تركز على رصد الواقع العام على واقع الذات الساردة. «من هنا غلب ضمير المتكلم على السرد في كثير من النصوص غلبة كلية أو جزئية».

و هذا معناه أن مسألة الإضمار تعود إلى جوهر اللغة الطبيعية نفسها حيث لا تستطيع أي لغة مهما كانت أن تعبر بكل دقة عن الواقع وحالة الأشياء، أو إلى القصد الذي يستخدمه المتكلم باللغة لأي سبب من الأسباب، ولكن المتلقي يمتلك الحرية في ملء الفراغات والبياض.

وبذلك أصبح البطل ينعكس من خلال السرد القصصي يمر عبر الأنا الذي يختزل وضع الآخرين في وضعه الشخصي لعمومية الحالة**5**. من هنا استطاع القاص محمد بشير بويجرة أن يواكب بإبداعه الجو العام خلال هذه المرحلة مع ثلة من المبدعين الجزائريين أمثال :

عبد حميد بن هدوقة والطاهر وطار، ومرزاق بقطاش وآخرون ممن اشتهروا في مرحلة الثمانينات وكذلك مرحلة التسعينيات.

أما من حيث المضمون، فقد عالجت الرواية وكذلك القصة بوادر الأزمة التي انتابت الجزائر وعصفت بها طيلة العقد الأخير من القرن الماضي، «و ركزت في هذا التناول على أهم مظاهرها :العنف المسلح، وما جره من مآسي وآثار سلبية**6**». فظهرت بهذا السياق نصوص كثيرة لقصاصين وروائيين من كل الأجيال أمثال الروائي الطاهر وطار في روايته : (الشمعة والدهاليز)، والروائي مرزاق بقطاش : في روايته (خويا دحمان) وواسيني الأعرج وإبراهيم سعدي:(فتاوى زمن الموت)، وحميد عبد القادر (الانزلاق)، ومحمد بشير بويجرة (في يوم الجب)، وسواهم من المبدعين الجزائريين.....

ولمقاربة هذه الإشكالية النقدية، ارتأينا قراءة نص :

(الرصاصة والذاكرة)، وهو نص للقاص **محمد بشير بويجرة**، نشره بضميمة مجموعة قصصية عنونها : (في يوم الجب).

تحتوي المجموعة القصصية الموسومة بـ:(يوم الجب) على اثنتي عشرة قصة قصيرة كلها ترصد البطولات الباسلة للشعب الجزائري إبان الثورة على الاستعمار الفرنسي الغاشم. ويجب أن نشير. في مستهل حديثنا . إلى أن العنف يبدأ عندما يزول التوافق بين الأفراد والجماعات المنتمين إلى منظومة اجتماعية أو ثقافية أو سياسية واحدة، ويزول –بذلك – الاستقرار في العلاقات بين هؤلاء الأفراد والجماعات من هنا، يحاول القاص محمد بشير بويجرة وصف حالة التذمر التي يعاني منها الشعب الجزائري من جرّاء التعذيب التي ولّدت الاحتقان والكراهية للاستعمار الفرنسي، فيتحدث عن سكان واد الشرفة :«(...) كنتم سكان القرية تسمعون من الاستعمار وأذنابه، بأن هناك مجموعة من قطاع الطرق قد خرجوا عن طاعة فرنسا،

وستقضي عليهم في ظرف أسبوعين على أكثر تقدير (...) لكنكم كنتم تعرفون بأنهم ثوار الجزائر(...)**8**».

إذا أردنا تحديد السرد في هذا النص، نجد أن منهجية تحليل الخطاب الذي أرد القاص تمريره هو خطاب سياسي نتج عن الغليان الذي ترعرع في خضم ثورة التحرير، والذي نتج عن الضغط والعنف والظلم والحيف التي كان يمارسه الاستعمار الفرنسي الظالم ضد الشعب الجزائري. كما أن هذا التحليل كان سائدا في مرحلتي السبعينات والثمانينات. الأمر الذي جعل عدة دراسات تعتمد على نظريات **هاريس، وإميل بنفست وجاك ديبوا** وسواهم.

فقد اعتمدت الدراسات التي تناولت هذا النوع من الخطاب وخاصة الخطاب السياسي على التصنيف، قد رست المعجم، وأنواع الضمائر، و كذلك الزمان والمكان. من هنا نرى القاص محمد بشير بويجرة يعتمد على الضمائر في قوله :

(.. كنتم سكان القرية...) وكذلك على الزمان والمكان في قوله:

(و سنقضي عليهم في ظرف أسبوعين).

ويستمر القاص محمد بشير بويجرة في وصف الأحوال المختلفة للشعب الجزائري الرازح تحت سياط الاستعمار الفرنسي الغاشم الذي كان يمارس شتى ألوان التعذيب والقهر، يقول محمد بشير بويجرة :

«شاب لطيف لا يتجاوز سنه الخامسة والثلاثين... ابن الثورة ولا شك... لكن لهجته تذكرني بذلك الرقيب الذي كان مكلفا بتعذيبي... »**9**

هذا النوع من السرد هو سرد إخباري يصور أنواع التعذيب والحيف

والظلم الذي كان يمارسه المستعمر الفرنسي الطاغي بوحشية وعنجهية.

ويمكن استنتاج من تفاصيل هذا السرد الإخباري ما يأتي :

1-السردية: فهذه السردية تشمل كل أنواع السلوك والتصرف الذي تصوره شخصيات القصة عبر كل المستويات.

2-يقوم السرد على دينامية تقوم على التناقض يتجلى في الطرح الحكائي في النص.

3-ينطلق السرد من امتلاك الرؤية إلى فقدها أحيانا ومن فقدها إلى امتلاكها أحيانا أخرى.

وهذا ما جعل الخطاب منسجما في تصوير أفكار القاص بصورة متسلسلة حسب اقتراح **كريماص** الذي وضع مفهوما للتشاكل لتوكيد انسجام الخطاب وإيضاحه وإن كان غامضا، أو تشييد رسائله وموضوعاته العامة والخاصة.

ثم ينتقل القاص محمد بشير بويجرة إلى تصوير شجاعة الثوار الجزائريين وبسالتهم، وكذلك بطولاتهم الرائعة التي لقنت العدو الفرنسي دروسا في البسالة والشجاعة لا تنسى، يقول

القاص محمد بشير بو يجرة : «آخر كلمة لفظها القائد... ويكون تلفظ بالكثير لكن ذلك ما سمعته فقط، كان وابل الرصاص قد انهمر... وبدأ السباق والتسابق... كنا نزداد قوة ومعاندة... وكان العدو ينقص عددا وعدة»**10**

هذه نماذج من قصة محمد بشير بويجرة، وهي قصة قصيرة تصف ترابط الخطاب القصصي في الجزائر، بعبارة أخرى، فقد وصفت هذه القصة جنس الخطاب واسترساله، ومستوياته الدلالية، وكذلك نمو موضوعاته، وخصائصه الأسلوبية. كما أن هذه القصة قد ارتكزت على الخصائص الفنية، مبرزة تقنية السرد، معتمدة على تنقل متواصل في الحوار في شكل ذهاب /إياب بين الحاضر والماضي :

- حاضر سردي مع العودة المتكررة إلى الماضي استلزم الأمر ذلك

« صباح الخير يا ابنتي.....

- صباح الخير.....

-أريد رؤية الطبيب....

- خذ رقما

- رقم ثلاثون... الساعة الحادية عشر

- وتقطع الحوار.... »**11**

الحق أن صبغة التنقل بين الحاضر والماضي في هذه القصة يتناسب والموضوع، وكذلك الأصوات السردية التي تختلف باختلاف المستويات:

. نجد الصوت الأساسي في المستوى الأول هو صوت السارد أو القاص، كلما تعلق الأمر بأحداث الزمن الحاضر بوصفه فاعلا وضعيا يتأثر بالمحيط الذي يتحرك ضمنه أكثر مما يؤثر فيه، فيسرد هذه الأحداث بضمير المخاطب : «خذ رقما... »**12**. وضمير المخاطب . في هذه الحالة . هو أحد تنويعات ضمير المتكلم في السرد، ذلك-أن الضمير. ههنا . يشبه مناجاة السارد لنفسه.

. أما في المستوى الثاني فإن الصوت السردي يتغير كما الحال في الحوار الذي دار بين الطبيب والمريض في القصة**13**.

هذه جملة من الملاحظات حول قصة : **(الرصاصة والذاكرة)** للقاص محمد بشير بويجرة، وهي قراءة جادة لبعض جوانب الخطاب القصصي الفنية والتقنية قصد الكشف عما فيها من طاقات خفية وقيم فنية عالية. فعلى الرغم من أن هذه القصة القصيرة تمتاز بقصرها المفرط من حيث عدد الصفحات، فإنها تشترك مع معظم النصوص القصصية الجزائرية من روايات ومجموعات قصصية كثيرة.

مراجع البحث وإحالاته:

(1)ينظر: بعض خصائص الخطاب : علامات في النقد
المجلد التاسع:مارس 2000-النادي الأدبي جدة:المملكة السعودية، ص:9
(2) المرجع نفسه :ص:10
(3) الرواية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدكتور محمد مصايف، الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس 1983، ص، 311.
(4) الكتاب العربي وعلاقته بجمهور القراء، ساري محمد، جريدة السلام، أبريل 1996، الجزائر، ص:37
(5)من ملامح النص الروائي الجزائري المعاصر، إبراهيم صحراوي، علامات في النقد، العدد:10 سبتمبر:2000، النادي الأدبي، جدة، المملكة العربية السعودية، ص:310.
(6) قراءة في بواكير جيلين، إبراهيم صحراوي، مجلة المنتدى، العدد:189-أبريل 1999، دبي:الإمارات العربية المتحدة:ص:16 وما بعدها.
(7)ينظر:إبراهيم صحراوي: المرجع السابق :ص:311
(8)ينظر:إبراهيم صحراوي، المرجع نفسه، ص:311
(9)محمد بشير بويجرة :الرصاصة والذاكرة، قصة قصيرة، بضميمة مجموعة :في يوم الجب، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، 2004ص:27
(10)محمد بشير بويجرة :المصدر نفسه:ص:28.
(11)المصدر نفسه :30
(12)نفسه :30
(13)نفسه:31 وما بعدها.